

استقبال شهر رمضان بالتوبة والاستغفار



اختص الله عز وجل شهر رمضان، بفضل عظيمة ومكارم جليلة، يقول تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الْمُبْدَىٰ أُرْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) (البقرة/185). شهر اختص الله عز وجل بتنزيل الرحمات والبركات من رب الأرض والسماء، يقول النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): «أَتَاكُمْ رَمَضَانُ شَهْرٌ مَبَارِكٌ، فَرِزَّ أَعْزَّ وَجْلًا عَلَيْكُمْ صِيَامٌ، تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ، وَتَغْلِلُ فِيهِ مَرَدَّةُ الشَّيَاطِينِ، إِنَّ فِيهِ لَيْلَةً خَيْرًا مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَنْ حَرَمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ». إن الواجب على المسلمين في استقبال شهر رمضان المبارك أن يغتنموا فرصة حلول هذا الشهر، لفتح صفحة جديدة وذلك بالتوبة إلى الله سبحانه وتعالى، فكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: (قُلْ يَا عَبْدَ اللَّهِ إِذَا أَسْرَفْتُكُمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَافِرُ الرَّحِيمُ * وَأَنْبِئُوكُمْ إِنَّ رَبَّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ إِنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنَصَّرُونَ) (ال Zimmerman/53-54). وهكذا بالاستغفار تنوّر صحيحة المؤمن، وبالآخرة ينور قلبه، بل يتلاّ نوراً، لأنّه يمحو الظلمات ونقاط العتمة من القلب، ليكون كلّه صفاءً وبיאضاً.. قلب سليم من كلّ ذنب وظلم وسوء.. وكان حقّاً بذلك الاستغفار ذهاباً لهموم من كثرة همومنه، لأنّ أكثر الهم من التعلق بالدنيا والتلوّث بأدرانها، والاستغفار سباحة مع ربّه في فضاء رحمته الواسعة التي وسعت كلّ شيء. يقول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما روّي عنه: «مَنْ أَكْثَرَ الْإِسْتِغْفَارَ جَعَلَهُ مِنْ كُلِّ هُمْ فَرِجاً، وَمَنْ كُلِّ ضيقٍ مُخْرِجاً، وَيُرْزَقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ». روّي عن الإمام جعفر الصادق: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتُوبُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ». ولو كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يكثر هكذا من الاستغفار، وهو المنزه عن الذنوب، فكيف الحال بسائر العباد؟ وماذا يحمل الاستغفار للإنسان من خيرات حتى يلجم إليه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ليل نهار؟ وهو الذي نزل فيه قوله تعالى: (لَيَغْفِرَ لِكَ اللَّهُ مَا تَقْدِمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُذَ) (الفتح/2).

فلا بد أن تكون في دروب الاستغفار كنوز وأسرار، فما هي؟

قال الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم): «خير الدعاء الاستغفار»، وقال (صلى الله عليه وآلـه وسلم): «خير العبادة الاستغفار». إذن في الاستغفار بركات كثيرة، فهي أمان للأمة يبعد عنهم سخط الله تعالى ويجلب رحمته، فالمستغفر يشعر بالأمن يحيط به من كل جانب والطمأنينة تملأ قلبه، فيستشعر رحمة الله ويشعر بالرضا عن نفسه وعن الحياة، وتلك سعادة ما فوقها سعادة.

وفي هذا الشهر المتميز على غيره من الشهور الأخرى، فالعطاء أكبر والمغفرة أوسع فهو عند الله أفضل الشهور وأيامه أفضل الأيام بل وساعاته أفضل الساعات. لذلك يحتاج المسلم إلى أن يذكر نفسه وغيره بضرورة استثمار الأوقات المباركة ومواسم الرحمة والمغفرة في العمل للآخرة، وبضرورة الإفادة من الوقت ونفحات هذا الشهر وأثارها المباركة العاجلة والآجلة. لذا، فإنّه من المهم بمكان أن ينتفع المسلم انتفاضة رحامية روحانية رمضانية مع انطلاق هذا الشهر الكريم، ليزيل غبار المعاصي المتراكمة، والوهن الذي أوهى القلوب والأفكار، فيعيده نور الفطرة إلى القلب المظلوم، ويغذى الروح بمياه النقاء، ويكسو الجوارح بلباس التقوى، ويعطر كيانه بعبير التوبة والمغفرة، فيسلم من المضلالات، ويكثر من الدعاء وقراءة القرآن، ويطرد عن نفسه تلك الأدران التي ربما لحقته قبل إشراقة شمس رمضان مستفيداً من هذا الشهر وبركته. سالكاً خطى النبي^{*} الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم)، مقتدياً بكمال علوم همه (صلى الله عليه وآله وسلم) في ذاته وأمّته، ولاسيما في مثل هذه الأوقات الفاضلة والمواسم الفاصلة في حياة المسلم.

ويؤكد^{**} النبي^{*} (صلى الله عليه وآله وسلم) في شهر رمضان، أن يستحضر الإنسان كل ذنبه السالفه ليتوب إلى الله منها: (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنِ النَّاسِ يَعْفُو عَنِ الذَّنْبِ) (الشورى/25)، و(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوْبَةَ إِبْرَاهِيمَ) (البقرة/222)، والتوبة هي الندم على ما فعله الإنسان من ذنب، والعزم على أن لا يفعل ذلك في المستقبل، وهي التوبة النصوح التي يدعو النبي^{*} (صلى الله عليه وآله وسلم) إليها: «وتوبوا إلى الله من ذنوبكم، وارفعوا إليه أيديكم بالدعاء في أوقات صلواتكم، فإنّها أفضل الساعات - فالصلوة هي معراج روح المؤمن إلى الله، وعندما يقف الإنسان بين يدي الله مستشهاداً بذلك على عبوديته له، فإنّه يكون قريباً إليه - ينظر الله عزّ وجلّ فيها بالرحمة إلى عباده؛ يحبهم إذا ناجوه، ويلبّيهم إذا نادوه، ويعطيهم إذا سألوه، ويستجيب لهم إذا دعواه. يا أيّها الناس، إنّ أنفسكم مرهونة بأعمالكم - فما الذي يحرّر هذه النفس ويعتقها؟ - ففكّوها باستغفاركم - أن تستغفر الله في الصباح والمساء، ليستذكر كلّ إنسان ذنبه، ويستغفر الله منه - وظهوركم ثقيلة من أوزاركم، فخفّفوا عنها بطول سجودكم - اسجدوا سجوداً طويلاً، لأنّ الإنسان عندما يسجد، يشعر بإخلاص العبودية له والقرب منه - واعلموا أنّ الله أقسم بعزمته أن لا يعذّب المصليين والمساجدين، وأن لا يروعهم بالذمار يوم يقوم الناس لرب العالمين». فالخير كلّ الخير في هذا الشهر مشهور فلنحافظ على هذا الخير في هذا الشهر الذي وصف بأذنه شهر الله الأكبر كما وصف بأذنه: شهر التوبة وشهر الطهور وشهر الصيام وشهر القيام وشهر الإيمان وشهر الإسلام وشهر التقوى وشهر التمحص وشهر الإخلاص.